٨٦٤٣
١٦٩٤٩

افضل الاتّباع الاقتداء برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

الدكتور سيّد خليل باستان
جامعة العلامة الطباطبائي ـ كلية الآداب

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على محمّد وآله الطاهرين.

المقدمه:

لابدّ لكل قوم من امام يقتدى به ويعمل بآرائه سوءً كان صالحاً أم طالحاً، وبناءً على هذا فانّ القرآن المجيد يرشدنا الى الطريق السوي قائلاً: ﴿لقد كان لكم في رسول الله اسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ (٢١/الاحزاب).

فالمؤمنون بالله و بيوم القيامة هم المعنيون وهم المخاطبون فى القرآن العظيم، ولابدّ ان يقتدوا في حياتهم الدنيا برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والسير على خطاه والعمل باوامره لانّه: ﴿لا ينطق عن الهوى إن هو الا وحي يوحى﴾ (٤/النجم)، ويعدّ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في أعلي درجات التابعين لله سبحانه جيث يقول: ﴿إن اتّبع الّا ما يوحىٰ اليّ﴾ (٥٠/الانعام)، وكذلك اتباعه المسلمون المؤمنون الذين يصفهم الله قائلاً: ﴿محمّد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل....﴾ (٢٩/الفتح). فالصفات هي:

١ ـ سيرتهم الشدة مع الكفار الاعداء والرحمة والرأفة فيما بينهم.

٢ ـ إقامة الصلاة.

٣ ـ طلب الرضوان من الربّ المتعال.

٤ ـ آثار الخشوع بادية في وجوههم.

٥ ـ وتجد هذه الاوصاف جاءت في التوراة والانجيل أيضاً.

فما أحوجنا اليوم نحن المسلمون ان نتّبع الرسول العظيم(صلى الله عليه وآله وسلم) ونقتدي به في أعمالنا وأقوالنا والسير على خطى أئمة المسلمين من آله الطيبين الطاهرين حتى نصيب السعادة في حياتنا الدنيا والفوز بالجنان في الآخرة.

مفتاح الكلمات: القرآن الكريم ـ التفسير ـ الحديث ـ الاتباع لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

النظرة اللغوية للتبعية:

لأجل أن يتّضح معنى التبع وما يشتق منه من المعاني لابدّ لنا من مراجعة اللغة، فيرى ابن منظور (م ٧١١ هـ): ان [تبع الشيء تبعاً وتباعاً في الافعال، وتبعت الشيء تبوعاً: سرت في أثره ..... وتبعت القوم تبعاً وتباعة (بالفتح)، اذا مشيت خلفهم أو مرّوا بك فمضيت معهم ... واتّبع القرآن ائتمّ به وعمل بما فيه، يقال: تابع فلان بين الصلاة وبين القراءة، اذا والى بينهما ففعل هذا على اثر هذا بلا مهلة بينهما ..... وتابع عمله وكلامه: أتقنه وأحكمه ...] ويرى الراغب الاصفهاني (م ٥٠٢ هـ): [يقال تبعه واتّبعه: قفا أثره، وذلك تارة بالارتسام والائتمار (الامتثال)] وعلى ذلك قوله [﴿فمن تَبِع هُداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (٣٨/البقرة)، ﴿قال يا قوم اتبعوا المرسلينَ اتّبعوا مَن لا يسألكم أجراً﴾ (٢٠/ يس)، .... ﴿واتّبعوا ما تتلو الشياطين﴾ (١٠٢/البقرة)، ﴿ولا تتّبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾ (٢٦/ص) ..... ويقال اتبعه اذا لحقه، قال ﴿فأتبعوهم مشرقينَ﴾ (٦٠/الشعراء) .....] وقال صاحب مجمع البحرين (م ١٠٨٧ هـ): [قوله: ﴿لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً﴾ (٦٩ / الاسراء) أي تابعاً وناصراً، وقوله ﴿فاتّباع بالمعروف﴾ (١٧٨/البقرة) أي متابعة بالمعروف، وقوله: ﴿واتبعتهم ذريتهم بايمانٍ، ألحقنا بهم ذريتهم﴾ (٢١ / الطور) .... قوله: ﴿والشعراءُ يتّبعهم الغاوون﴾ (٢٢٤/الشعراء) أي

يلحقونهم ... والمصلي تبع لامامه ... والتبعة ككلمة ما فيه إثم يتبع به، ومنه الدعاء: ولا تجعل لك عندي تبعةً الّا وهبتها...].

ويرى صاحب مجمع البيان (م ٥٦١ هـ) ان [الاتّباع تصرف الثاني بتصرف الاوّل وتدبره بتدبيره، فالاوّل امام والثاني مؤتم، ووجوب الاتباع فيما أنزل الله تعالى يدخل فيه الواجب والندب والمباح، لأنه يجب ان يعتقد في كلّ منهما ما أمر الله سبحانه به كما يجب ان يعتقد في الحرام وجوب اجتنابه] ويرى في مكان آخر بأن [الاتباع لحاق الثاني بالاوّل لما له به من التعلق، فالقوة للاوّل، والثاني يستمدّ منه، والتابع ثان متدبر بتدبير الاوّل متصرف بتصريفه] وقال ثالثاً [الاتباع هو طلب الثاني موافقة الاوّل فيما دعا اليه].

الفرق بين الاتباع واللحوق

قيل ان: [الفرق بين الاتباع واللحوق مع اعتبار التقدم والتأخر فيهما جميعاً انه يعتبر في الاتباع اشتراك بين التابع والمتبوع في مورد الاتباع بخلاف اللحوق، فاللاحق لا يشارك الملحوق في ما لحق به فيه].

ملخص الكلام: انّ التبع والاتباع هو في الافعال والاعمال والتصرفات لا في الاقوال متوالياً بلا فصل، والسير واقتفاء الاثر واللحوق بالمؤتم به وموافقته وتسليم الأمر اليه والانقطاع عمّا سواه.

الرؤية القرآنية للتبعية

ذكر الدامغاني في كتابه وجوهاً سبعة لكلمة تبع المستخدمة في القرآن الكريم كالتالي: [فوجه منها: الاتّباع يعنى الصحبّة. قوله تعالى في سورة الكهف: (هل أتّبعك، هل أصحبُكَ) مثلها فيها: فان اتّبعنتي، أي صحبتني .....

الثاني: الاتباع الاقتداء. قوله تعالى في سورة يس ﴿اتّبعوا من لا يسألكُم أجراً﴾ أي اقتدوا به.

الثالث: الاتّباع الاستقامة. قوله تعالى في سورة النحل ﴿ثُمَّ أوحَينا اليكَ أن اتّبع ملة

ابراهيم حنيفاً﴾ .

الرابع: الاتباع الاختبار. قوله تعالى في سورة البقرة ﴿واتّبعوا ما تتلو الشياطين﴾ أي وعملوا ـ يعني اليهود ـ بما تتلو الشياطين ....

السادس: الاتّباع الطاعة. قوله تعالى ﴿ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُهُ لاتبعتم الشيطان الّا قليلا﴾ يعني أطعتم الشيطان .....]

الثامن: الاهتداء يقول الطبرسي (م ٥٦١ هـ) في تفسير قوله تعالى: [فان حاجّوك فقل أسلمتُ وجهي لله ومن اتبعن، المقصود بـ (اتبعنِ) اهتدى بي في الدين]

إنّ القارئ يلاحظ ان الرؤيتين اللغوية والقرآنية متقاربتان جداً، فالجانب العملي للقرآن العظيم من الصحبة والاستقامة والاختبار والطاعة و... اكثر شمولاً وأوسع مساحة من الناحية اللغوية، وهذا يعني ان القرآن الكريم يشمل جميع مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية و... و... وأوسع نطاقاً من اللغة.

انواع التبعية

لقد قسّم القرآن الكريم التبعية الى نوعين الاولى محمودة والثانية مذمومة كما قال ربّ العالمين ﴿ذلك بانّ الذين كفروا اتّبعوا الباطل وان الذين آمنوا اتّبعوا الحقّ من ربّهم﴾ (محمد/٣)، طريقان لا ثالث لهما إمّا الحقّ وإمّا الباطل، إمّا الله وإمّا الشيطان، إمّا التوحيد وإمّا الشرك، إمّا الايمان والتقوى والهدى، وإمّا النفاق والضلال والعمى، واعلم [إنّ الملاك كلّ الملاك في سعادة الانسان وشقائه اتّباع الحقّ، واتّباع الباطل، والسبب في ذلك انتساب الحقّ اليه تعالى دون الباطل]، كما هو الملاحظ في الآية السابقة، وكذلك نستنبط من هذه الآية الشريفة بأن الاتّباع هو للدين خاصة، لقد وازن الله بين الكفر والايمان وبين الحقّ والباطل، هذا ويعدّ الله سبحانه اتباعنا للحقّ من فضله ومنّه علينا كما جاء في هذه الآية [ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتّبعتم الشيطان الّا قليلاً] (النساء/ ٨٣). وبناءً على ما مضى فانّ أمير المؤمنين علياً (عليه السلام) يفتخر بالسباق بالتبعية لربّ العباد حين يقول: (اللّهم إنّي أوّل من أناب (اطاع واتبع) وسمع وأجاب، لم يسبقني إلّا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

بالصلاة) نعود فنقول انّ التبعية المحمودة تكون لله سبحانه وتعالى، ثم للرسل عليهم الصلاة والسلام، فالناس مأمورون باتّباع سبيل الرشد وطريق الحقّ وبما انزله الله على رسله عليهم السلام، حيث يقول تعالى: ﴿واذا قيل اتّبعوا ما أنزل الله﴾ (من القرآن وشرايع الاسلام) قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ (البقرة / ١٧٠)، ثم يجب ان يكون هذا الاتّباع تسليماً لله كما يقول عزّ من قائل: ﴿ومَن أحسنُ ديناً ممّن أسلم وجهه لله وهو محسن واتّبع ملة ابراهيم﴾ (النساء / ١٢٥)، وقوله تعالى: ﴿واتّبع ملة ابراهيم﴾ (اي اقتدى بدينه وسيرته وطريقته، يعني ما كان عليه ابراهيم، وأمر به نبيه من بعده وأوصاهم به من الاقرار بتوحيده وعدله وتنزيهه عمّا لا يليق به ومن ذلك الصلاة الى الكعبة والطواف حولها وسائر المناسك.) وكذلك يجب ان يكون حبّاً له كما تشير هذه الآية: ﴿قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾ (آل عمران/ ٣١)، فالايمان بالله يستوجب الايمان بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم ان حبّ الشيء يقتضي حبّ جميع ما يتعلق به وبوجوب الخضوع والتسليم لكل ما هو في جانبه ولقد امرنا الجليل بحبّ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وآله خاصة بقوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودة في القربى﴾ (الشورى/ ٢٣)، وهذه زليخا تنجو وتفوز بحبّ محمّد(صلى الله عليه وآله وسلم) كما نقل عن الصادق(عليه السلام) قال: (استأذنت زليخا على يوسف، فقيل لها: انا نكره ان نقدم بك عليه، لما كان منك اليه، قالت: إنّي لا أخاف مَن يخاف الله، فلما دخلت قال لها: يا زليخا ما لي أراك قد تغير لونك؟ قالت: الحمد لله الذي جعل الملوك بمعصيتهم عبيداً، وجعل العبيد بطاعتهم ملوكاً. قال لها: ما الذي دعاك يا زليخا الى ما كان منك؟ قالت: حسن وجهك يا يوسف. فقال: كيف لو رأيت نبيّاً يقال له محمّد يكون في آخر الزمان أحسن منّي وجهاً وأحسن منّي خُلقاً واسمح منّي كفاً، قالت: صدقت، قال وكيف علمت إني صدقت؟ قالت: لأنّك حين ذكرته وقع حبّه في قلبي. فاوحى الله عزّوجلّ الى يوسف انّها قد صدقت وانّي احببتُها لحبّها محمّداً، فأمره الله تبارك وتعالى ان يتزوجها.)

وامّا اتباع الرسل (عليهم السلام) والرسول محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) خاصة، فهناك آيات وآيات ترشدنا الى ذلك، علماً بأننا ملزمون باتباع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كما تقول هذه الآية

الشريفة: ﴿واتّبعوه لعلّكم تهتدون﴾ (الاعراف / ١٢٨)، حتى نهتدي الى سبيل الرشد وتكون عواقب امورنا خيراً. ثم لنسمع الى هذه الآية: ﴿ربّنا آمنّا بما أنزلت واتّبعنا الرسول (يقصد به عيسى(عليه السلام)) فاكتبنا مع الشاهدين﴾ (آل عمران/٥٣) أو هذه الآية ﴿إن أولى الناس بابراهيم للذين اتّبعوه وهذا النبيّ (محمّد صلى الله عليه وآله وسلم) والذين آمنوا...﴾ (آل عمران / ٦٨)، ثم لنقف قليلاً عند رابطة الدين التي هي من أعلى الروابط الانسانية والتي جاءت على لسان الروايات عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وآله الكرام (عليهم السلام):

١ ـ [قال امير المؤمنين (عليه السلام): إنّ ولي محمّد مَن أطاع الله وان بعدت لحمته، وان عدوّ محمّد من عصى الله وان قربت قرابته.

٢ ـ روى عمر بن يزيد قال قال ابو عبدالله: انتم والله من آل محمّد، قلتُ: من أنفسهم؟ جعلت فداك، قال: نعم، والله من أنفسهم، قالها ثلاثاً، ثم نظر اليّ ونظرت اليه، فقال يا عمر: انّ الله يقول في كتابه: إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه... الآية].

وامّا قوله تعالى: وهذا النبيّ والذين آمنوا [افراد للنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن اتّبعه من المؤمنين من الذين اتّبعوا ابراهيم اجلالاً للنبيّ وصوناً لمقامه ان يطلق عليه الاتباع كما يستشعر ذلك من قوله تعالى: ﴿اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ (الانعام / ٩٠) حيث لم يقل: فبهم اقتده].

ثم استمع الى قوله تعالى: [﴿الذين يتبعون الرسول النبيّ الاميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل.... واتّبعوا النور الذي انزل معه اولئك هم المفلحون﴾ (الاعراف /١٥٧)، فالضوء نور للعين والقرآن العظيم نور للقلب، ويروى ان النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لاصحابه: أي الخلق أعجب إيماناً؟ قالوا: الملائكة. فقال: الملائكة عند ربّهم فما لهم لا يؤمنون؟ قالوا: فالنبيون. قال: النبيون يوحى اليهم فما لهم لا يؤمنون؟ قالوا: فنحن يا نبيّ الله، قال: أنا فيكم فما لكم لا تؤمنون؟ إنما هم قوم يكونون بعدكم يجدون كتاباً في ورق فيؤمنون به فهو معنى قوله واتّبعوا النور الذي أنزل معه].

وبهذا الاتّباع المحمود يختبر الله عباده التابعين من الناكصين، ويعدّ محكاً للبلاء، وذلك لأن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) متبع رضوان الله ولا يعدو رضاه فانظر الى قوله تعالى:

١ ـ ﴿وما جعلنا القبلة التي كتب عليها الّا لنعلم (الثابت الصادق) من يتبع الرسول ممّن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة (ثقيلة) الّا على الذين هدى الله﴾ (البقرة/ ١٤٣).

٢ ـ ﴿أفمن اتّبع رضوان الله كمن باء بسخط (عذاب) من الله﴾ (آل عمران / ١٦٢).

٣ ـ ﴿قل صدق الله فاتّبعوا ملة ابراهيم حنيفاً...﴾ (آل عمران /٩٥)، فقوله: [فاتّبعوا... كالكناية عن اتّباع دين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وانما لم يذكره بعينه لأنهم كانوا معترفين بملة ابراهيم، ليكون اشارة الى كون ما يدعو اليه من الدين حنيفاً فطرياً، لان الفطرة لا تمنع الانسان من أكل الطيبات من اللحوم وسائر الرزق].

التبعية المذمومة

لقد قلنان فيما مضى ان الاتباع والتسليم انّما هو لله وللرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وبالاحرى للدين، وعليه جعل الاسلام رابطة الدين من أقوى الروابط كما يقول امير المؤمنين (عليه السلام) لمالك الاشتر: [فانّهم (الناس) صنفان امّا اخ لك في الدين (رابطة الدين) وإما نظير لك في الخلق]. ولقد رسم القرآن الكريم طرق الانحراف عن الحقّ إما عن طريق الشيطان أو الهوى أو الظنّ او اتباع سبيل الضلال أو فرعون وامثاله، فعلى هذا الاساس لا يسمح الدين بأن نكون أولياء للشيطان كما جاء في قوله تعالى: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان انّه لكم عدوٌّ مبين﴾ (البقرة/ ١٦٨)، أو لهوى النفس كما في قوله تعالى: ﴿فلا تتبعوا الهوى﴾ (النساء/ ١٣٥)، أو للظنّ والريب كما جاء في قوله تعالى: ﴿إن يتّبعون إلّا الظنّ وان هم الّا يخرصون﴾ (الانعام / ١١٦)، ثم اعلم ان الظنّ والهوى عاملان اساسيان لاضلال الشعوب كما يقول ربّ العالمين: ﴿ان يتبّعون إلّا الظنّ وما تهوى الانفس﴾ (النجم/ ٢٣)، أو السير في نهج الضلال كما في قوله تعالى: ﴿ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ (الانعام/ ١٥٣)، أو قوله تعالى: ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين ...﴾ (النساء/ ١١٥)، أو قوله تعالى: ﴿ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ (الاعراف/ ١٤٢)، أو الاتباع لفرعون كما في قوله تعالى: ﴿فاتّبعوا أمر فرعون، وما أمر فرعون برشيد﴾ (هود/ ٩٧)، أو امثال فرعون

كما في قوله تعالى: ﴿واتّبعوا أمر كل جبّار عنيد﴾ (هود / ٥٩).

علل الانحراف

لقد ذكر القرآن الكريم عللاً متعددة للانحراف عن طريق الصواب في سلوك الانسان فمنها التقليد الاعمى من قبل الابناء للآباء، ومنها القلوب المريضة، ومنها اتّباع الشهوات ومنها الجهل ومنها ان يكون الانسان في مظان ابليس ومنها عدم الايمان بالله تعالى. وامّا التقليد الأعمى فأشار اليه القرآن الكريم بقوله: ﴿بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ (البقرة/ ١٧٠)، او ممّن زاغ قلبه وفسد كما في قوله تعالى: ﴿فأمّا الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾ (آل عمران / ٧) وامّا اتّباع الشهوات كما جاء في قوله تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتّبعوا الشهوات﴾ (مريم /٥٩)، وامّا الجهل ففي قوله تعالى: ﴿وما لهم به من علم ان يتبعون الّا الظنّ وان الظنّ لا يغني من الحق شيئا﴾ (النجم /٢٨)، أو أنهم في مظانّ ابليس (لعنة الله عليه) كما في قوله تعالى: ﴿ولقد صدّق عليهم ابليس ظنّه فاتّبعوه الّا فريقاً من المؤمنين﴾ (سبأ/ ٢٠) أو من عدم الايمان بالله سبحانه كقوله تعالى: ﴿انا كنا لكم تبعاً فهل انتم مغنون عنّا نصيباً من النار﴾ (غافر/٤٧)، ومن المعروف ان من سمات الايمان بالله العمل الصالح وبما أمر به الله ونهى عنه.

نهاية الانحراف

لقد صوّر القرآن المجيد النتائج المترتبة لاتّباع غير الله تعالى بأبشع صور وما هي الّا الدخول في النار والخروج من ولاية الله تعالى وتبرّؤ الشيطان من اتباعه وايجاد الافساد في الكون ونشر المنكرات في المجتمع، فالدخول في النار صوّره ربّ العباد قائلاً: ﴿قال اخرج منها مذؤوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأنّ جهنم منكم أجمعين﴾ (الاعراف/ ١٨) والخروج من ولاية ربّ العالمين ففي قوله تعالى: ﴿ولئن اتّبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من وليّ ولا واق﴾ (الرعد/ ٣٧) وامّا تبرّؤ

الشيطان من اتباعه يوم العسرة والحساب فهو قوله تعالى: ﴿وقال الشيطان لما قضي الامر انّ الله وعدكم وعد الحقّ ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلّا ان دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾ (ابراهيم/٢٢)، وامّا افساد الكون فهو كما يقول الخالق عزّوجلّ: ﴿ولو اتبع الحقّ أهوائهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن﴾ (المؤمنون/ ٧١)، وامّا اشاعة الفحشاء فكما يقول الباري تعالى في هذه الآية: ﴿ومن يتبع خطوات الشيطان فانّه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾ (النور/٢١) ، فالذي يتدبر الآيات القرآنية بدقة سيجد موضوعات أخرى، وانما نكتفي بهذا القدر خوف الاطالة.

الدعوة الى الاتّباع

جاءت نداءات القرآن العظيم تارة الى الانبياء (عليهم السلام) وأخرى الى الشعوب، وبعبارة أخرى ألقى القرآن الكريم مسؤولية الاتّباع على الفرد وهم الانبياء(عليهم السلام) وعلى رأسهم وأشرفهم وافضلهم محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) وأخرى على عاتق الجمهور، وامّا الانبياء(عليهم السلام) فاتّباعهم اولاً: من الله سبحانه كما تشير هذه الآية: ﴿قل انّما اتبع ما يوحى اليّ من ربّي﴾ (الاعراف/٢٠٣) أو الآية التالية: ﴿ان اتّبع الّا ما يوحى اليّ﴾ (يونس/١٥)، فالحصر هنا (إن ـ إلاّ) للتأكيد بأن الانبياء (عليهم السلام) هم اتباع الله سبحانه فقط، وهناك آيات كثيرة أخرى تشابه هذا المعنى، ثانياً: من الانبياء(عليهم السلام) وعلى رأسهم باني التوحيد في العالم النبيّ ابراهيم (عليه السلام) كما تقول هذه الآية: ﴿ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة (دين) ابراهيم حنيفاً ...﴾ (النحل/ ١٢٣) أو قوله تعالى: ﴿واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب....﴾ (يوسف/ ٣٨)، امّا مسؤولية الشعوب في الاتّباع فهذه الآية توضح ذلك: ﴿وانّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه (اقتدوا به) ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ (الانعام/١٥٣)، أو الآية الشريفة الاخرى: ﴿وهذا كتاب (القرآن) أنزلناه مبارك فاتّبعوه (كونوا من اتباعه) واتّقوا لعلكم ترحمون﴾ (الانعام/ ١٥٥)، أو قوله تعالى: ﴿واتّبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربّكم﴾ (الزمر/ ٥٥)، قال الطبرسي (م/٥٦١ هـ) في ذيل تفسير هذه الآية [فمن أتى بالمأمور وترك المنهي عنه فقد اتّبع الاحسن].

خلاصه الكلام: كل من اتّبع الله تعالى والانبياء (عليهم السلام) فسيكون على بصيرة ويقين من أمر دينه ودنياه، حيث يقول تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ (يوسف/١٠٨)، [وعن ابن عباس قال: انه يعني أصحاب محمّد كانوا على أحسن طريقة]. وقال صاحب الميزان في تفسيره (أنا ومن...) [فتوسعة وتعميم لحمل الدعوة وأن السبيل وان كانت سبيل النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) مختصة به، ولكن حمل الدعوة والقيام به لا يختص به بل من اتّبعه (صلى الله عليه وآله وسلم) يقوم بها لنفسه]، وقال ايضاً في تفسير قوله: قل هذه... [عن ابي جعفر (عليه السلام) قال: ذاك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأميرالمؤمنين والاوصياء من بعدهما... وعن ابي عبدالله (عليه السلام) قال: يعني علي اوّل من اتّبعه على الايمان والتصديق له وبما جاء به من عند الله عزّ وجلّ من الامة التي بعث فيها ومنها واليها قبل الخلق ممّن لم يشرك بالله قط ولم يلبس ايمانه بظلم وهو الشرك].

ونختم الكلام بقوله تعالى: ﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم إتّبعوا المرسلين اتّبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾ (يس/ ٢٠،٢١)، فما أحلى هذا الاتباع الذي يجلب الهدى بلا عوض مالي، فانها الرقيّ في سلّم الايمان الذي تحدّث الله عن أصحاب الكهف قائلاً: ﴿إنّهم فتيه آمنوا بربّهم وزدناهم هدى﴾ (الكهف /١٣).

بين التابع والمتبوع

الفرد والمجتمع أصلان لا يغفل الاسلام عنهما فالانبياء (عليهم السلام) يطالبون الامة لاتباعهم على سبيل الرشد والنهج القويم والطريق المستقيم، طريق الاصلاح والهداية والابتعاد عن الشرّ والضلالة، فمن سنن الانبياء (عليهم السلام) دعوة الامة والمجتمع البشري الى الهداية كما يتضح من الآيات التالية: ﴿يا أبت انّي قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني (اقتد بي) أهدك صراطاً سوياً﴾ (مريم / ٤٣)، أو قوله تعالى: ﴿ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم انّما فتنتم به وان ربّكم الرحمن فاتّبعوني (فيما ادعوكم اليه) واطيعوا أمري﴾ (طه / ٩٠)، أو قوله تعالى: ﴿وقال الذي آمن يا قوم اتبعون اهدكم سبيل الرشاد﴾ (غافر /٣٨) أو قوله تعالى: ﴿واتبعون هذا صراط مستقيم﴾ (الزخرف/٦١).

المواقف

لقد رسم القرآن المجيد مواقف عديدة بالنسبة للتابعين وهي تدور على محاور ثلاثة، فهناك موقف لله تعالى وموقف لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وموقف للاعداء، فاما الموقف الأوّل: فكفاية الله تعالى لرسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) واتباعه كما يقول: ﴿يا أيها النبيّ حسبك الله ومن اتّبعك من المؤمنين﴾ (الانفال / ٦٤) حيث يقول الزمخشري (م / ٥٣٨هـ) في تفسيره (كفاك وكفى اتباعك من المؤمنين الله ناصراً)، وقال الطبرسي في تفسيره (أي كافيك الله ويكفيك متبعوك من المؤمنين). وامّا الموقف الثاني لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالنسبة لاتباعه فهو يحوم على جانبين: الأوّل: اخلاقي ألا وهو التواضع لأتباعه حيث يقول ربّ العالمين: ﴿واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين﴾ (الشعراء / ٢١٥)، وقال صاحب الميزان في ذيل تفسيره للآية: (والمراد بالاتباع الطاعة بقرينة قوله في الآية التالية: فإن عصوك فقل إنّي بريء مما تعملون). وامّا الجانب الثاني فانّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عدّهم جزءاً منه (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث قال تعالى: ﴿فمن تبعني فانّه منّي ومن عصاني فانّك غفور رحيم﴾ (ابراهيم / ٣٦)، وقال الطبرسي في تفسيره [أي هو بعضي لفرط اختصاصه بي وملابسته لي] وامّا الموقف الاخير فيري الاعداء بمنظار ضيّق للانبياء (عليهم السلام) ومنشأ ذلك الحقد والحسد والجهل والكبرياء فانّهم يتمسكون بمعاذير واهية وحجج فاسدة، من ان اتباع الانبياء (عليهم السلام) هم الاراذل وليسوا باشراف، أو انّهم يتّبعون رجلاً مسحوراً أو كيف نتبع من كان بشراً مثلنا؟ وأخيراً التمسك بالتقليد الاعمى للآباء والسير على خطاهم الضالة، وهذه الآيات تبين لنا بوضوح هذه المواقف فقوله تعالى: ﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم اذاً لخاسرون﴾ (الاعراف / ٩٠)، أو قوله تعالى: ﴿وان تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم سواءٌ عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾ (الاعراف / ١٩٣) أو قوله تعالى: ﴿وما نراك اتبعك الّا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾ (هود / ٢٧) أو قوله تعالى: ﴿واذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما وجدنا عليه آباءنا﴾ (لقمان / ٢١)، أو قوله تعالى: ﴿فقالوا أبشراً منا واحداً نتّبعه انّا اذاً لفي ضلال وسعر﴾ (القمر / ٢٤)، ولنر آراء المفسرين في قوله تعالى: قالوا أنؤمن لك واتّبعك

الارذلون (الشعراء / ١١١)، قال الزمخشري (م / ٥٢٨هـ) [ألاترى الى هرقل حين سأل ابا سفيان عن اتباع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ... فلما قال: ضعفاء الناس وأراذلهم قال: مازالت اتباع الانبياء كذلك] وامّا الطبرسي فيقول: [المعنى ان أتباعك أراذلنا وفقراؤنا وأصحاب الاعمال الدنيئة والمهن الخسيسة، فلو اتبعناك لصرنا مثلهم ومعدودين في جملتهم، وهذا جهل منهم لانه ليس في ايمان الأرذلين به ما يوجب تكذيبه فامّا الرذل اذا أطاع سلطانه استحق التقرب عنده دون الشريف العاصي] ويرى صاحب الميزان [اتباع الارذلون: الظاهر انّهم كانوا يرون الشرف والكرامة في الاموال والجموع من البنين والاتباع، كما يستفاد من دعاء نوح (عليه السلام) اذ يقول: ربّ انّهم عصوني واتّبعوا من لم يزده ماله وولده الّا خساراً (نوح / ٢١)، فمرادهم بالأرذلين من يعدّهم الاشراف والمترفون سفلة يتجنبون معاشرتهم من العبيد والفقراء وأرباب الحرف الدنيئة].

عاقبة التابعين

هناك فوائد جمة تصيب التابعين المستسلمين لأمر الدين الماضين على سنن الانبياء (عليهم السلام) والصالحين، صوّرها الجليل في كتابه العزيز تصويراً جميلاً تزيد النفوس شوقاً للتابعين لاصحاب الحقّ واليقين فمنها:

١. ضمان الأمان: جاء في الخبر: نعمتان مجهولتان الصحة والأمان، ثم انظر الى قوله تعالى: ﴿فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (البقرة / ٣٨)، فجملة لا خوف عليهم صفه الضمان الامني الالهي للتابعين، وكذلك جملة ولاهم يحزنون صفة لطرد ونفي الهموم والاحزان عن النفوس للتابعين وما هو الّا الضمان النفسي لهم، فما أعظمهما من مكرمتين من الله لاصحاب الدين.

٢. اكتساب الرضوان: للانسان أهداف يسعى للوصول اليها بعضها مادي والآخر معنوي، وعلى رأس الاهداف اكتساب رضوان الله تعالى، فلا يمكن التوصل اليه الّا عن طريق الاتّباع كما يقول ربّ العباد في هذه الآية: فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوءٌ واتبعوا رضوان الله (آل عمران / ١٧٤) ولما يكتسب الانسان المؤمن رضوان الله

فسيهدى الى سبل السلام كما يقول عزّ من قائل: يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام (المائدة / ١٦). وبالتالي سيظل اكتساب رضى الله سبحانه وتعالى من ابرز الاهداف الرئيسية لاصحاب الايمان وكما تشير الآية الشريفة الى ذلك: والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتّبعوهم باحسان رضي الله عنهم (لاعمالهم) ورضوا عنه (لما أعطاهم من نعم) (التوبة / ١٠٠) وسنقف قليلاً عند رأي بعض المفسرين لهذه الآية الكريمة حتى ندرك المعنى اكثر.

قال الطبرسي (م / ٥٦١هـ) في قوله تعالى [والسابقون الاولون، أي السابقون الى الايمان والى الطاعات وانما مدحهم بالسبق لان السابق الى الشيء يتبعه غيره فيكون متبوعاً وغيره تابع له، فهو امام فيه وداعٍ الى الخير بسبقه اليه،... والذين اتّبعوهم باحسان، أي بافعال الخير والدخول في الاسلام بعدهم وسلوك منهاجهم ويدخل في ذلك من يجيء بعدهم الى يوم القيامة] ويقول في آخر التفسير انه [روى الحاكم ابو القاسم الحسكاني باسناده مرفوعاً الى عبدالرحمن بن عوف في قوله سبحانه والسابقون الاولون قال هم عشرة من قريش أولهم اسلاما علي بن أبي طالب (عليه السلام)].

ويقول العلامة الطباطبائي: [وظهر ممّا تقدم اولاً: ان الآية تمدح الصنفين الاولين، (المهاجرين والانصار) بالسبق الى الايمان والتقدم في إقامة الدين ورفع قاعدته، وتفضيلهم على غيرهم على ما يفيده السياق. وثانياً: أن [من] في قوله: من المهاجرين والانصار، تبعيضية لا بيانية مما تقدم من وجه فضلهم، ولما ان الآية تذكر ان الله رضي عنهم ورضوا عنه، والقرآن نفسه يذكر ان منهم من في قلبه مرض ومنهم سماعون للمنافقين، ومنهم من يسميه فاسقاً، ومنهم من تبرأ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) من عمله ولا معنى لرضى الله عنهم، والله لا يرضى عن القوم الفاسقين. وثالثاً: ان الحكم بالفضل ورضى الله سبحانه في الآية مقيد بالايمان والعمل الصالح على ما يعطيه السياق فان الآية تمدح المؤمنين في سياق تذم فيه المنافقين بكفرهم ووعدهم وعداً جميلاً فقد قيد جميع ذلك بالايمان والعمل الصالح كقوله تعالى: للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله، الى آخر الآيات الثلاث

الحشر: ٨] وللعلامة تفسير روائي يقول فيه [جاء في تفسير البرهان عن مالك بن أنس عن ابي صالح عن ابن عباس قال: «السابقون الاولون» نزلت في أميرالمؤمنين (عليه السلام) وهو أسبق الناس كلّهم بالايمان وصلّى إلى القبلتين، وبايع البيعتين بيعة بدر وبيعة الرضوان، وهاجر الهجرتين مع جعفر من مكة الى الحبشة ومن الحبشة الى المدينة].

٣. الهداية: ان المطلوب من الانسان ان يرتقي سلّم الايمان شيئاً فشيئاً حتى يصل الى المحبوب، فالتابع للحقّ مضمونة هدايته من قبل الله الذي بيده كلّ شيء والذي يقول في هذا المجال: قل الله يهدي للحقّ أفمن يهدي الى الحقّ أحقّ أن يتبع ام من لا يهدي (يونس/ ٣٥).

٤. التفوّق: من المعلوم ان للمؤمنين درجات مختلفة في الجنّة وان الجنّة لها سبع طبقات تفوق بعضها على بعض، منها الفردوس الخاص لمحمّد وآل محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهي أفضل بقاع الجنّة، ومنها النعيم ومنها العدن ومنها و... ومنها ....

وكذلك لاصحاب الايمان منازل دنيوية يتذوقون فيها طعم الايمان والعمل الصالح لما جاء في الآية الشريفة: اذ قال الله يا عيسى انّي متوفيك ورافعك اليّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتّبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة (آل عمران/ ٥٥)، ولنا هنا وقفة مع صاحب المجمع وصاحب الميزان فلكلّ واحد منهما نظرة تفيد المخاطبين فأحببت ان اورد ذلك وامّا رأي العلامة الطبرسي في ذيل تفسيره للآية فيقول: [وقيل المعنى به أمة محمّد(صلى الله عليه وآله وسلم)، وانّما سمّاهم تبعاً وان كانت لهم شريعة على حدة لانه وجد فيهم التبعية صورة ومعنى امّا صورة فانه يقال فلان يتبع فلانا اذا جاء بعده وامّا معنى فلأنّ نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) كان مصدقاً بعيسىٰ وبكتابه ويقال لمن يصدق غيره انه يتبعه على ان شريعة نبينا وساير الانبياء متحدة في ابواب التوحيد، فعلى هذا هو متبع له اذ كان معتقداً اعتقاده يوم القيامة ولأن من دعاه الهاً لايكون في الحقيقة تابعاً له] واما رأي العلامة الطباطبائي فيقول: [وها هنا وجه آخر وهو ان يكون المراد بالذين اتبعوا هم النصارى والمسلمون قاطبه وتكون الآية مخبرة عن كون اليهود تحت اذلال من يذعن لزوم اتباع عيسى الى يوم القيامة، والتقريب عين التقريب، وهذا أحسن الوجوه في توجيه الآية عند

التدبر].

٥. قبول التوبة وغفران الذنوب: مازال الانسان يعصي ربّه، وذلك لما توسوس في صدره الاوهام، فهو في معرض الزلل والسقوط في فخّ الشيطان الرجيم، وتصدر منه الاعمال السيئة بلا اختيار فلا بدّ من ماحٍ للسيئات ومضاعف للحسنات، وما من سبيل الّا الى الله تعالى الذي يقول: لقد تاب الله على النبيّ والمهاجرين والانصار الذين اتّبعوه في ساعة العسرة (التوبة/١١٧). وكذلك يقول: فاغفر للذين تابوا واتّبعوا سبيلك وقهم عذاب النار (الغافر/٧).

٦. نفى الضلال والشقاء: هذا ضمان آخر للتابعين للحقّ وللانبياء (عليهم السلام)، ضمان للبقاء في طريق الصواب والرشد والنجاة من الشقاء والنفاق كما يقول الله تعالى: ﴿فإمّا يأتينكم منّي هدًى فمن اتّبع هداي فلا يضلّ ولايشقى﴾ (طه/١٢٣).

٧. الغلبة على الاعداء: لكلّ أمر عاقبة وعاقبة التابعين الفوز والغلبة بالقوة والقهر على اعداء الدين كما نشاهد هذا الضمان في قوله تعالى: ﴿انتما ومن اتّبعكما الغالبون﴾ (القصص/ ٣٥).

٨. إصابة الرحمة: قال تعالى: ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتّبعوه رأفةً ورحمةً﴾ (الحديد/٢٧). ان الله سبحانه وتعالى يعاقب الناس في أبدانهم وأنفسهم، فإذا اراد أن يجازي أحداً في الدنيا امّا ان يطبع على قلبه كما جاء فى قوله تعالى: ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ (الاعراف/ ١٠١)، او يختم عليه أحياناً كما في قوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ (البقرة/٧)، او يضرب الاقفال عليها كما في قوله تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها﴾ (محمّد/٢٤)، فعندئذٍ يكون الانسان كالانعام بل اضلّ، فما أشدّه من عقاب بأن لا يدرك ولا يفهم الانسان شيئاً كالحيوانات همّها علفها، فالقلب الذي لا يفكر ولايدرك ولا .... ولا .... ولا .... فانّه ميّت وان كان صاحبه يتحرك، وامّا اذا دخلته الرحمة والرأفة والشفقة فانها لتُحيي القلوب، فاصحاب القلوب الحيّة يستحقون الاحترام والتكريم والعزّة فاكرم بها من نعمة تصيب التابعين للانبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين.

٩. إلحاق الذرية: قال تعالى: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم (نقصناهم) من عملهم من شيء﴾ (الطور/٢١).

ان الانسان ليرغب ان يعيش في حياته الى جوار اولاده حتى يعلم ما يصيبهم من خير او شرّ وان يكون على علم بهم، والانسان طبعه يميل في العيش الى جوار أسرته وعائلته وأقربائه وذريته، فهكذا سيكون الأمر غداً في دار الخلد، فانّ الله يمنّ ويتكرّم على المؤمنين والصالحين من اولادهم ان يعيشوا جنباً الى جنب آبائهم في الجنّة كما تشير الآية الآنفة الذكر، وكما تشير الأحاديث التالية في هذا الصدد.

ينقل الزمخشري عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بأنه قال: [انّ الله يرفع ذرية المؤمن في درجته وان كانوا دونه لتقرّ بهم عينه، ثم تلا هذه الآية].

ويقول الطبرسي: [والمعنى أنا نلحق الاولاد بالآباء في الجنّة والدرجة من أجل ايمان الآباء لتقرّ أعين الآباء باجتماعهم معهم في الجنة كما كانت تقرّ بهم في الدنيا..... قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ان المؤمنين واولادهم في الجنّة ثم قرأ هذه الآية].

واخيراً نرجو من الله تعالى ان يجعلنا وايّاكم من التابعين المخلصين للآوليائه الصالحين وخاصة خاتم الرسل محمّد بن عبدالله(صلى الله عليه وآله وسلم) وآله الطيبين الطاهرين.

المصادر

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار لسان العرب، بيروت، لبنان.
٣ ـ الدامغاني، الحسين بن محمد، الوجوه والنظائر، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٠م.
٤ ـ دشتي، محمد، ترجمة نهج البلاغة، نشر مشرقين، ايران، طهران، ١٣٧٩ش.
٥ ـ الراغب الاصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات، المكتبة المرتضوية، طهران.
٦ ـ رشيدي، محمد بسام، المعجم المفهرس لمعاني القرآن، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ.
٧ ـ الزمخشري، جار الله، الكشاف، مكتبة الاعلام الاسلامي، ايران، قم.
٨ ـ شهيدي، سيد جعفر، ترجمة نهج البلاغة، انتشارات وآموزش انقلاب، طهران، ١٣٧٠ش.
٩ ـ الصدوق، الحسين بن موسى، علل الشرايع، المكتبة الحيدرية، النجف ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م.
١٠ ـ الطباطبائي، العلامة السيد محمد حسين، الميزان، مؤسسة اسماعيليان، طهران، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.
١١ ـ الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٩هـ.
١٢ ـ الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، كتابفروشي مصطفوي، طهران.
١٣ ـ عبدالباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٤هـ.